الحياة الرّهبانيّة في ظلّ شخصيّة القدّيس بولس

الأخت دولّي شعيا

مقدّمة

إن كان هناك من قاسمٍ مُشترك بين مار بولس والحياة الرّهبانيّة، فهو يكمن في مركزيّة الصّليب. في رسائل القدّيس بولس استدعاءٌ قويّ لقيامة الرّبّ من بين الأموات، القيامة المقرونة بسرّ الصّليب. فهو يقول في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس: "نحن نكرز بالمسيح مصلوبًا" (١ قور ١: ٢٣).

لم يتعرّف "شاول الطّرسوسيّ" على المسيح جسديًّا، ولكنّه التقى به على طريق دمشق فقلب مقاييس قِيَمِهِ رأسًا على عَقَب وطبع حياته كلّها فأصبحت حياةً "في المسيح" وحده. فهم بولس جيّدًا هبة ونزاهة هذه الحقيقة، وبذل المسيح لذاته المرتبط بسرّ الفصح والقيامة. هكذا يلعب الصّليب دورًا مهمًّا في الحياة الرّهبانيّة، إذ يطبع حياة الرّاهب بعنصر الشّراكة[١] وبذل الذّات من أجل حبٍّ أكبر وأعمق[٢].

من هنا نستيطع القول أنّ "المكرّس" في تعليم القدّيس بولس[٣] هو "خادم الله" الّذي يأخذ على عاتقه يومًا بعد يوم أن يحيا "في المسيح يسوع"[٤]، ولا يستطيع أن يخدمه ما لم يكن ثابتًا فيه، ولا هدف له إلاّ معرفته (فل ٣: ١٠). لكن في الزّمن الّذي نحيا فيه وهو زمن الفرديّة بامتياز، ونحن شهودٌ على التّحوّل السّريع الّذي تعيشه جماعاتنا الرّهبانيّة من جماعات متضامنة مبنيّة على المثل الإنجيليّة وبالتّحديد على مفهوم الحياة المشتركة، إلى جماعات مبنيّة على الفرديّة والاستهلاك، كيف يدعونا القدّيس بولس لنكون جماعة جديدة مبنيّة على قِيم المسيح؟ وكيف تحوّل الحياة الرّهبانيّة واقع الجماعة الّذي تعيش فيه، من واقعٍ مادّيّ بحت إلى واقعٍ لا يعيش إلاّ "في المسيح"؟

١. إنقلابٌ على طريق دمشق

[١] U. VANNI, *L'ebbrezza nello Spirito.* Una proposta di spiritualità paolina (Bibbia e preghiera 38), Roma 2000, 182-186.

[٢] "يلتزم المؤمن بالمسيح، بقوّة النّذور، أو بقوّة عهودٍ مقدّسة تُشابه النّذور من وجوهٍ خاصّة، أن يمارس المشورات الإنجيليّة الثّلاث...فبذلك يقف نفسه بكاملها على الله المحبوب فوق كلّ شيء، مستهدفًا خدمة الرّبّ وإكرامه على أساسٍ خاصّ. إنّه بالمعموديّة مات عن الخطيئة وتكرّس لله؛ ولكنّه، لكي يتمكّن من أن يجني ثمار نعمة المعموديّة بوفرةٍ أكثر، يقصد، بنذر المشورات الإنجيليّة المعلن في الكنيسة، إلى التّحرّر من العوائق الّتي من شأنها أن تحول دون نشدانه المحبّة المضطرمة والعبادة الكاملة لله والتّكرّس الصّميم للخدمة الإلهيّة. ويكون هذا التّكرّس أكثر كمالاً بمقدار ما يرتبط برُبُطٍ أوثق وأثبت تمثل فيه صورة المسيح متّحدًا بالكنيسة، عروسه، برباطٍ لا ينفصم" (نور الأمم، ٤٤).

[٣] لا نجد عبارة "مكرّس" في تعليم القدّيس بولس للتّعبير عن إنسانٍ له وضع قانونيّ يدعى مكرّسًا، بل نجد مرادفات لها: خادم الله، ومعاون الله، ورسول، وسفير المسيح...

[٤] ترد عبارة "في المسيح يسوع" في رسائل القدّيس بولس ١٦٠ مرّة للدّلالة على أهميّة خدمة الآخرين الّتي لا تتمّ إلاّ إذا كان المكرّس نفسه في قلب المسيح.

لا شكّ في أنّ لقاء بولس بالمسيح على طريق دمشق قلب حياته. وقد نجم عن هذا الاختبار تعلّق بولس بشخص المسيح وتغيّر جذريّ في حياته. فلا شيء آخر بعد هذا اللّقاء له أهميّة عنده. اكتشف بولس أنّ كلّ ما كان يعتبره حتّى الآن ميزة، لم يكن بشيءٍ (فل ٣: ٧) قياسًا إلى معرفة يسوع المسيح المائت والقائم من بين الأموات (فل ٣: ١٠).

بات لقاء بولس بالمسيح، على طريق دمشق، الحدث الأساسيّ في حياته والّذي كان يعود إليه دومًا وكأنّه نصب عينيه أينما ذهب[٥]. وانطلاقًا من هذا الانقلاب، فهم بولس سرّ الصّليب (١ قور ١: ١٨) وأنّ قدرة الله تظهر في أقصى حدود الضّعف. فهم بنعمٍ من الله أنّ دعوته كانت هبة مجانيّة من الله، لذا لا يتوقّف بولس عن الاندهاش قائلاً: "ذلك بأنّي أصغر الرّسل، ولستُ أهلاً لأن أُدعى رسولاً لأنّي اضطهدتُ كنيسة الله، وبنعمة الله ما أنا عليه، ونعمته عليّ لم تذهب سُدىً، فقد جَهَدتُ أكثر منهم جميعًا، وما أنا جهدتُ، بل نعمة الله الّتي هي معي" (١ قور ١٥: ١٠). عاش القدّيس بولس، طوال حياته، هذا الاندهاش بين عظمة الرّسالة الموكلة إليه وضعفه الّذي لم يكفّ عن الشّعور به، وبين الكنز الثّمين الّذي حصل عليه وحالته الّتي هي "آنية خزف" (٢ قور ٤: ٧). هذا الاندهاش جنّبه التّكبّر، وقاده إلى التّأمّل بسرّ قدرة الله الّذي أظهر كلَّ قوّته في ضعف بولس: "حسبكَ نعمتي، فإنّ القدرة تكتمل بالضّعف".

منذ ذلك الحين أصبحت حياة بولس كلّها موجّهة نحو السّعي إلى من "قبض عليه" (فل ٣: ١٢). وهنا يكمن معنى حياته العميق: قبض المسيح عليه، فوجد نفسه متخليًّا عن ذاته في المحبّة الّتي منحه إيّاها المسيح.

لا شكّ أنّ المسيح عندما يدعو الرّاهب، يحوّل حياته جذريًا ويَلِدُ في عالمه الدّاخليّ "الحياة به". أمّا الحفاظ على هذه الحياة، فهو من عمله أنّه بالسَّهر والاهتمام سيتجنّب خطر الخروج عن "الحياة في المسيح". إنَّ متطلّبات الدّعوة ليس من الأعمال الّتي تفوف قوى الرّاهب، ما دام هذا الأخير يتقوّى بالنّعمة الإلهيّة. فهو باقترابه من المسيح يشتاق أن يتبعه في كلّ شيء ويُصبح شوقه عهدًا مقدّسًا يُقيّده مدى الحياة.

الرّاهب الّذي رغب في أن يحيا "في المسيح" وقرّر ذلك، على مثال مار بولس، عليه أن يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمسيح المصلوب. إن رَغِبَ ما يرغبه المسيح، فسيحقّق هذا الرّباط الّذي هو الكلّ في الحياة الرّهبانيّة، وإذا أراد أن يكون قلبه مُلكًا للمسيح، عليه أن يروّض إرادته ويهيّءَ نفسه لتُسَرَّ بما يُسرُّ المسيح.

إنّ المسيح هو مصدر حياة الرّاهب، فهو "به يحيا ويتحرّك ويوجد" (أعمال ١٧: ٢٨). وهو نموذج حياته "لأنّ الّذين سبق فعرفهم سبق فعيّنهم ليكونوا مشابهين لصورة ابنه (روم ٨: ٢٩). وهو هدف حياة الرّاهب، وقد دُعي هذا الأخير ليعيش بحسب إنجيل يسوع فيكون رسالةً مكتوبة، لا بحِبرٍ بل بروح الله الحيّ (٢ قور ٣: ٣). وفوق

[٥] پيار دوبرجيه، **بولس الرّاعي**، سلسلة دراسات في الكتاب المقدّس ٤٠، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٩، ص. ٩-١٣.

كلّ ذلك، المسيح هو تعزية الرّاهب وسبب اندهاشه أمام عظمة الإله الّذي يتكرّس له. فحين تعصف به الآلام غمرًا، وحين تُحيق به البلايا، وحين ينتابه حزنٌ ويغشاه الخوف، وحين يلوح له شبح اليأس، يقترب منه المسيح قائلاً له: "لا تخف أنا هو" (مت ١٤: ٢٧؛ مر ٦: ٥٠؛ يو ٦: ٢٠).

٢. التّبشير بالإنجيل

التقى بولس بالمسيح، فلم يعُد بوسعه إلاّ أن يبشّر به ويُخبر عمّا اختبر. ولكن ما هو محتوى الإنجيل الّذي بشّر به بولس؟ إنّه إنجيلٌ يقومُ على أحداث موت المسيح وقيامته، وعلى ضوء هذا الحدث الخلاصيّ يقرأ بولس التّحرّر من الخطيئة ومن الشّريعة ومن الموت. إنّه التّعبير عن قدرة الله (روم ١: ١٦) الّتي تجلّت بطريقةٍ مُدهشة جدًّا، من خلال موت يسوع على الصّليب.

اختبر بولس حقيقة الإنجيل كقوّة الله الخلاصيّة، لأنّه في لقائه بالمسيح وجد نفسه محبوبًا ومُخلَّصًا: اختبر المحبّة الّتي تحرّر وتخلّص. غاص بولس في معنى الصّليب كاشفًا إلى أيّ مدى بلغ تواضع الله. هدم الصّليب القدرة البشريّة ومحدوديّتها وأفسح الطّريق أمام بولس ليفهم الله فهمًا جديدًا. هكذا تأتي القيامة الّتي تحمل كلّ معناها في عار الصّليب[٦].

ما أجمل أن تأخذ محبّة المسيح "بمجامع قلب" (٢ قور ٥: ١٤) الرّاهب، فلا يَعِش إلاّ من أجله فقط. لذا، مُضطرمًا بمحبّة المسيح، لا يمكنه أن يبحث عن مصالحه الشّخصيّة، بل عن كلّ ما يخصّ المسيح. فيصبح ما يرغبه الرّاهب فقط هو أن يتعرّف الجميع على المسيح. وإن تأمّل الرّاهب بحبّ المسيح المتجلّي في ضعف الصّليب وقوّة القيامة (٢ قور ١٣: ٤)، لا يمكنه أن يقاوم هذا الحبّ. من هنا تنبع المحبّة الرّاعويّة الّتي تدفع الرّاهب لأن يهتمّ بالآخرين. فإن كانت حياته مؤسَّسة جيدًا على المسيح، فلا يمكنها سوى أن تؤدّي بالرّاهب إلى خدمة الجماعة ومشاركتها كلّ الثّمار الرّوحيّة التي جناها باتّكاله على النّعمة الإلهيّة. الكنز الّذي عثر عليه الرّاهب، ليس ملكه وحده، بل ليشارك به الآخرين. هذا ما عبّر عنه الطّوباويّ البابا يوحنّا بولس الثّاني في الإرشاد الرّسوليّ في الحياة المكرّسة شاكرًا الآب "على عطيّة الحياة المكرّسة الّتي تلتمسه في الإيمان، وفي رسالتها الجامعة، تدعو البشريّة كلّها للتّقدّم نحوه"[٧].

٣. الصّلاة والعمل

---

[٦] پيار دوبرحيه، **بولس الرّاعي**، ص. ١٣-١٧.

[٧] البابا يوحنّا بولس الثّاني، **إرشاد رسوليّ في الحياة المكرّسة (٢٥ آذار ١٩٩٦)**، ١١١.

نرى في بولس المصلّي، الرّسول الّذي يسيطر عليه الشّعور بسموّ الله وعظمته. وفي ذلك استعدادًا جوهريًّا للصّلاة مبنيًّا على كون بولس مقتنع بانعدامه وبؤسه. وبما أنّ الله وهبه نفسه مجانًا، لم ينسَ بولس أنّه لا يوجد قياس مشترك بين الله وبينه، وأنّه رغم تقرّب الله منه، فإنّه يبقى بطبيعته ضعيفًا[٨].

إنّ الرّسول الّذي لا يكلّ من البحث عن علاقة مودّة مستمرّة مع المسيح – حيث هذا الأخير لا يغيب أبدًا عن بصره – كان أيضًا عاملاً بدون تعب. ففي مجتمعٍ كان يبدو فيه العمل اليدويّ من اختصاص العبيد، تدعو حياة بولس إلى الغرابة الكبرى. فكيف على المجتمع أن يتصوّر المبشِّر الّذي يكتب الرّسائل ويؤسّس الجماعات عاملاً بيديه كي لا يكون عبئًا على أحد؟

إذا استثنينا حقيقة أنّ بولس عمل بيديه ليؤمّن احتياجاته، فإنّ اختياره لم يكن أمرًا تافهًا. لم يُرِد بولس أن يكون تابعًا أيّ جماعة، ولا أن يكون عبئًا على أيٍّ منها (٢ قور ١١: ٩؛ ١٢: ١٣-١٤)، بل سيجعل من العمل اليدويّ شرفًا له، لا بل "عنوان فخر" (١ قور ٩: ١٥). يأتي موقف بولس هذا مقابل مبالغة بعض المتجوّلين الميّالين بشكلٍ زائد إلى أن يكونوا عالةً على الجماعات الكنسيّة الّتي يبشّرونها، وهمّهم المنافع المادّيّة أكثر من اهتمامهم بإعلان الإنجيليّ الحقيقيّ.

كشف الله نفسه لبولس مجانًا، وبولس بدوره يريد أن يُعلن الإنجيل مجانًا (١ قور ٩: ١٦-١٨)، مذكِّرًا في رسائله بأنّ المكاسب والمنافع الشّخصيّة هي ضدّ روح الإنجيل.

يتوزّع نشاط الرّاهب بين الصّلاة والعمل. فالصّلاة تغذي ارتباطه بالله مصدر حياته وغايته القصوى. والعمل يحقق ارتباطه بأخيه الإنسان وسيطرته على الطّبيعة. الصّلاة والعمل هما الجناحان اللّذان يطير بهما الإنسان نحو الله: "من لي بجناحين كالحمامة فأطير واستريح" (مز ٥٥: ٧). الصّلاة تواصل وامتلاء من روح الله، والعمل جهدٌ إنسانيّ ومشاركة في عمل الله الخلاّق الّذي عمل في بدء الكون (تك ٢: ٣٦).

يقول البابا يوحنّا بولس الثّاني في رسالته العامّة، العمل البشريّ: "لا بدّ من أن يعمّ فهم العمل البشريّ كمشاركة في عمل الله على حدّ ما يعلّم المجمع فيتناول كلّ الأعمال اليوميّة، فالرّجال والنّساء الّذين في اهتمامهم لتوفير معيشتهم ومعيشة عيالهم يقومون بنشاطاتهم على نحو نافع للمجتمع يحقّ لهم أن يعتبروا أنّهم بعملهم هذا يواصلون عمل الخالق وينفعون أخوة لهم، ويسهمون شخصيًّا في إنجاز قصد الله في التّاريخ"[٩].

نقرأ في دستور "نور الأمم" ما يلي: "على المؤمنين أن يعتبروا أنّ الخليقة كلّها بما هي في جوهرها الصّميم وما هي عليه من قدر ونظام إنّما هي في سبيل مجد الله وأن يساعدوا بعضهم بعضًا حتّى بالأعمال الزّمنيّة على تقديس حياتهم بحيث يمتلئ العالم من روح المسيح فيبلغ غايته على وجه أجدى في العدل والمحبّة والسّلام... وليبذلوا كلّ

[٨] أخويات عائلات مريم، **روحانيّة القدّيس بولس**، سلسلة دراسات في الكتاب المقدّس، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٦، ص. ٧٩-٨٠.

[٩] البابا يوحنّا بولس الثّاني، **العمل البشريّ**، ٢٥.

جهودهم بما لها من كفاءة وهمّة ترفعها نعمة المسيح لكي يحسن البشر بعملهم و تقنيّتهم وثقافتهم استغلال الأشياء المخلوقة طبقًا لقصد الله وعلى هدى كلمته" (ص ٨٤).

وللعمل وجه آخر إذ يرافقه العناء والتّعب. واتّضح ذلك في مطلع سفر التّكوين إذ إن الخطيئة شوّهت المخطّط المثاليّ الّذي وضعه الله. فارتبط بالعمل البنّاء الخلاّق طابع العذاب والعقاب. "ملعونة الأرض بسببك بالمشقّة تأكل منها طوال أيّام حياتك. بعرق جبينك تأكل خبزك حتّى تعود إلى التّراب الّذي أخذت منه" (تكوين ٣/١٧-١٩). هذا البعد الآخر للعمل يجعل منه علاوة على المشاركة بعمل الله الخلاّق، مشاركة بالصّليب والفداء: "إنّ العرق والتّعب اللّذين يلازمان حال البشريّة يتيحان لكلّ إنسان مدعو هو الآخر لأنّ يتبع المسيح أن يشترك بالمحبّة في العمل الّذي جاء المسيح ينجزه. وعمل الخلاص هذا تمّ في الألم والموت على الصّليب. فعندما يقدم الإنسان التّعب الّذي يناله من العمل، مع المسيح المصلوب من أجلنا يعمل على طريقته مع ابن الله لفداء الجنس البشري. وتلميذ يسوع يحمل صليبه كلّ يوم في المهمّات الملتزم بها...يجد المسيحيّ في العمل البشريّ جزءًا من صليب المسيح فيقبله بروح الفداء الّذي به حمل المسيح صليبه من أجلنا. وبفضل النّور المشعّ من قيامة المسيح علينا نلمح دائمًا قبسًا من نور الحياة الجديدة والخيرات الجديدة يبشّر بسماوات جديدة وأرض جديدة يكون للإنسان والعالم فيهما نصيب بالعمل والتّعب"[١٠].

ليس من انفصال تامّ بين الصّلاة والعمل في حياة الرّاهب. فالصّلاة تتسرّب إلى العمل الّذي قد يصبح صلاة. فهناك وحدة حياتيّة بين سائر الأنشطة الإنسانيّة. يقول البعض "ساعة لك وساعة لربّك"، هذا ليس بصحيح لأنّ ما للرّبّ هو لي و ما لي هو للرّبّ وكلّ ما نعمله يوجّه للرّبّ وفي الوقت نفسه لخيرنا.

٤. في صراعٍ مع الفشل والمِحَن

عند قراءتنا رسائل القدّيس بولس، يطلّ أمامنا للوهلة للوهلة الأولى بطلاً جبّارًا، مقاتلاً لأعداء إنجيل المسيح ولا تسترعي انتباهنا ضخامة الآلام والمِحَن الّتي عاناها. فكيف نستطيع أن نفهم ما قاله القدّيس بولس في رسالته الثّانية إلى أهل قورنتس: "فإنّنا لا نريد، أيّها الإخوة، أن تجهلوا أمر الشّدّة الّتي ألمّت بنا في آسية، فثقُلَت علينا جدًّا وجاوزت طاقتنا حتّى يئسنا من الحياة نفسها" (٢ قور ١: ٨). في الحقيقة، كانت حياة بولس مقرونة بالألم في مختلف المستويات: آلام الفشل، وآلام المخاطر (الضّرب، والجَلد، والرّجم...)، وآلام المرض.

عرف بولس العديد من آلام الفشل. فكان ضحيّة الحسد والحذَر والرّفض والعداوة والطّرد من المدُن الّتي بشَّرها. أثار الاضطرابات والتّفرقة. يُقرّ بولس بضعفه ومعاناته في التّبشير عندما يتوجّه إلى أهل قورنتس قائلاً لهم:

[١٠] البابا يوحنّا بولس الثّاني، **العمل البشريّ**، ٢٧.

"وأنا لما أتيتكم، أيّها الإخوة، لم آتكم لأبلِّغكم سرّ الله بسحر البيان أو الحكمة، فإنّي لم أشأ أن أعرف شيئًا، وأنا بينكم، غير يسوع المسيح، بل يسوع المسيح المصلوب. وقد جئتُ إليكم وبي ضعفٌ وخوف ورعدة شديدة، ولم يعتمد كلامي وتبشيري على أسلوب الإقناع بالحكمة، بل على أدلّة الرّوح والقوّة، كي لا يستند إيمانكم إلى حكمة النّاس، بل إلى قدرة الله" (٢ قور ٢: ١-٥).

عانى بولس أيضًا عذاب العقوبات والآلام الجسديّة، والمتاعب، والمخاطر. إنّها مِحَنٌ لم يطلبها هو ولم يسعَ وراءها كما كان يفعل الرّواقيّون، بل فُرِضَت عليه وهمَّشته. فقد أصبح "قذارة العالم" و"نفاية النّاس جميعًا" كما يصف نفسه في ١ قور ٤: ١٣.

كلّ هذه الظّروف المؤلمة أثّرت في صحّة بولس الجسديّة. فهو يُشير إلى مرضٍ جسديّ في غل ٤: ١٣ وإلى واقع ضعفه الجسديّ في غل ٤: ١٤. كما ويقول في رسالته الثّانية إلى أهل قورنتس بأنّه أوتي "شوكةً في الجسد" (٢ قور ١٢: ٧).

لا يمكننا الغوص أكثر لنشخّص ما نوع هذا المرض. ربما يمكننا الاعتقاد بأنّه كان مرضًا يُصيبُه من حينٍ إلى آخر بشكلٍ فُجائيّ، كما قد نستنج من الرّسالة إلى أهل غلاطية بأنّ هذا المرض كان يتركه دومًا في حالة عجزٍ شديد. لكن علينا ألاّ ننسى أنّه ينبغي علينا أن نفهم مرض بولس بالمعنى المجازيّ، إنّه رمزٌ لسرّ الألم الّذي لازم خدمة بولس.

لم يسعَ بولس إلى الألم من أجل الألم. بل على العكس، صلّى ثلاث مرّات ليتخلّص منه (٢ قور ١٢: ٨). بالرّغم من محاربة بولس للألم، فهمَ بنعمة الرّبّ أنّ الألم هو أحد أبعاد التّبشير بالإنجيل، وأنّ رسول الإنجيل لا يمكنه أن يتفادى خبرة الصّليب. إنّه الألم الّذي يُفهَم فقط في نور محبّة الله الّتي لا يفصلنا عنها شيء (روم ٨: ٣٥-٣٩).

من أروع شهادات مار بولس اعترافه بضعفه: "نحن أيضًا بشرٌ ضعفاء مثلكم" (أعمال ١٤: ١٥)، واقتناعه به "فأنا بكلّ سرورٍ أفتخر بضعفي، لكي تستقرّ فيَّ قوّة المسيح. ولذلك فأنا أرضى بما أحتملُ من الضّعف والإهانة والضّيق والاضطِّهاد والمشقّة في سبيل المسيح" (٢ قور ١٢: ٩-١٠). ليس المقصود هنا قبول الضّعف بشكلٍ سلبيّ ولكن القناعة بأنّ الرّبّ يعرف ما هو الأفضل لي.

يعطي مار بولس أسبابًا عديدة ليشرح كيف أنَّ الضّعف البشريّ يجعلنا نعتمد على الله. فقد قال هو نفسه مشيرًا إلى ضعفه الذّاتيّ الّذي رفض الله أن يزيله قائلاً له "تكفيك نعمتي" (٢ قور ١٢: ٩). وعندها اكتشف أنّه كلّما قلَّ ما عنده زاد اعتماده على الله. الاعتراف بالمحدوديّة البشريّة حَمَى مار بولس من التّكبُّر وجعله متواضعًا: "ولئلاّ أنتفخ بالكبرياء من عظمة ما انكشف لي، أُصبتُ بشوكةٍ في جسدي وهي كرسولٍ من الشّيطان يضربني لئلاّ أتكبَّر" (٢ قور ١٢: ٧). لقد قدّم بولس مثالاً لعدم التّحصُّن في كلّ رسائله. فقد شارك بانفتاح سقطاته، ومشاعره، وإحباطاته، ومخاوفه.

إنّنا غالبًا ما نُنكر ضعفنا، وندافع عنه ونلتمس له الأعذار، ونخبّئه، ونستاء منه. وذلك يمنع الله من استخدامه بالطّريقة الّتي يبتغيها. إنّ الله لديه منظورٌ مختلف لضعفنا. فهو يعمل في أحيانٍ كثيرة بطرقٍ عكس ما نتوقّعه تمامًا. إنّنا نعتقد أنّ الله يريد أن يستخدم فقط نقاط القوّة فينا، لكنّه يستخدم ضعفنا لمجده.

ليس الضّعف صُدفةً، لكنَّ الله يسمح به في حياتنا بهدف إظهار قوّته من خلاله. إنّ القوّة أو الكفاية الذّاتيّة لا تُثير أبدًا إعجاب الله لكنّه ينجذب في الواقع إلى الضّعفاء الّذين يعترفون بضعفهم. تمتلئ رسائل مار بولس بالأمثلاة عن كيف يُحبُّ الله استخدام الأشخاص العاديّين وغير الكاملين، على الرّغم من ضعفهم. إن كان الله يستخدم أشخاصًا غير كاملين، فهذا خبرٌ مُشجّع لنا لأنّ لا أحد منّا يخلو من العيوب.

إنّ الضّعف، أو "الشّوكة في الجسد"، كما سمّاه مار بولس، ليس خطيئةً أو رذيلة أو عيبًا في الشّخصيَّة يمكنني أن أغيِّره. الضّعف هو أيُّ قيدٍ ليس لديَّ القدرة على تغيّيره. عندما أُفكِّر في القَيد في حياتي، قد أُجَرَّب لأستنتج أنّ الله لم يكن ليستطيع أن يدعوني إلى الحياة الرّهبانيّة ويستخدمني أبدًا. لكنَّ الله لا يُحَدُّ أبدًا بقيودنا، فهو يستمتع في الواقع بوضع قوّته العظيمة في آنيةٍ ضعيفة.

يستخدم الله ضعفنا، وليس فقط مراكز القوّة في حياتنا. إن كان كلّ ما يراه النّاس هو نقاط قوّتنا، فإنّهم سوف يُحبطون ويظنّون من عدم قدرتهم على عمل ما يعمله الرّاهب. لكنّهم عندما يرون الله يستخدمه على الرّغم من ضعفه، فإنّ ذلك سوف يشجّعهم على التّفكير: ربّما يستخدمني الله أنا أيضًا! إنّ قوانا تخلق المنافسة، لكنّ ضعفنا يخلق حياة الوَحدة.

كذلك فإنّ ضعفنا يُشجّع حياة الشّركة مع الآخرين. بينما تولِّد القوّة روح الاستقلال (لستُ في احتياجٍ إلى الآخرين) فإنّ قيودنا تُظهرُ لنا مدى احتياجنا لبعضنا البعض. والأهمّ من ذلك كلّه أن ضعفنا يزيد قدرتنا على العطف والخدمة، إذ أنّنا على الأرجح نُصبح أكثر قبولاً وتقديرًا لضعف الآخرين. إنّ الله يبغي أن يكون للرّاهب على الأرض خدمةٌ على مثال المسيح. وذلك يعني أنّ الآخرين سوف يجدون شفاءً في جراحه. إنّ أعظم رسائل الحياة وأكثر الخدمات فعاليّة تنبعُ من أعمقِ الجروح. تلك الأشياء الّتي تُسبِّب للرّاهب أكثر الارتباك والخجل، والّتي يتردَّد جدًّا في المشاركة بها، إنّها أهمّ أدوات يُمكن أن يستخدمها الله بكلّ قوّة لشفاء الآخرين.

خاتمة

يجد الرّاهب في رسائل القدّيس بولس مثال الرّسول الّذي، قبل مباشرته بالتّبشير بإنجيل المسيح، جعل نفسه إنجيلاً معاشًا. عرف بولس كيف يُشرك الآخرين في اختباره، في هذه المقدرة على التّماهي مع المسيح. منقادًا بالرّوح، أدرك بولس ما معنى الحبّ الجذريّ، الّذي يعطي ذاته دون حدود.

على مثال بولس، يشترك الرّاهب في غنى المسيح، الّذي يجذب ويُشغف الرّاهب به. يقول القدّيس يوحنّا فم الذّهب: "إنّ قلب بولس هو قلب المسيح"[١١]. فالحياة الرّهبانيّة ليست بعدد السّنوات بل في الدّخول في حياة المسيح. فمجتمعنا اليوم "يتوقّع أن يرى في الأشخاص المكرّسين صورةً مرئيّة لطريقة عيش يسوع"[١٢]. وبالرّغم من أن الجماعات الرّهبانيّة تعاني اليوم التّحدّيات والصّعوبات من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود، أي سعيها للمحافظة على أولويّة المسيح فوق كلّ شيء، فإنّ الله هو الّذي يقود التّاريخ ويجعل من السّلبيات فرصةً لاختبارٍ جديد، يكتشف فيه الرّاهب وجه المسيح المصلوب، الّذي يهب لنا "الكنز في آنيةٍ من خزف" (٢ قور ٤: ٧).

[١١] Johannes Chrysostomus, PG 61.

[١٢] مجمع مؤسّسات الحياة المكرّسة وجماعات الحياة الرسوليّة، **إنطلاقة جديدة من المسيح: "إلتزامٌ للحياة المكرّسة في الألفيّة الثالثة"**، **٢**.